الهامش الاجتماعي في الرواية

من منظور المنهج السيسيوثقافي

في العقد الأخير من القرن العشرين

الرواية المصرية نموذجا

د. هويدا صالح

المقدمة

حين اخترت قضية هامة مثل قضية المهمشين في الأدب كان لدي طموحات كبيرة في أن أستقصي الهوامش الاجتماعية المختلفة وتجلياتها في السرد الروائي انطلاقا من إيماني بأن الرواية هي صوت وتاريخ الشعوب الحقيقي. كانت محاور خطة الرسالة تراهن على استقصاء كل أشكال التهميش الاجتماعي سواء كان تهميشا على أساس العرق أو الدين أو النوع، فحددت الهوامش الاجتماعية فيما يلي : الهامش الديني (في مصر تحديدا هو الهامش المسيحي في مقابل المتن أو المركز الإسلامي)، وتستخدم الباحثة مصطلح المسيحي بديلا عن القبطي دعما لمقولة أن القبطي تعني المصري وليس المسيحي، وأننا كلنا أقباط، مسلمون ومسيحيون. كذلك رصدت الهامش الجغرافي سواء كان البيئات البينية على أطراف المدن (ما سُمِّي فيما بعد بالعشوائيات) أو البدو (في سيناء وغيرها من مناطق تواجد البدو) أو النوبة (باعتبار أن لهم هوية ثقافية خاصة حرص أهل النوبة على أن تتمايز عن بقية مكونات المجتمع المصري) أو هامش القرية في مقابل

المدينة، ثم الهامش النسوي باعتبار أن المرأة في مجتمع يتبنى الثقافة الذكورية تعتبر هامشا في مقابل المتن/ الرجل.

كان هذا طموحي حين وضعت خطة الموافقة على الرسالة، لكن مع بدء البحث الفعلي وجدت نفسي أمام معضلة كبيرة حيث أن كل محور من هذه المحاور يحتاج لبحث استقصائي موسع،بل لن يكون الأمر من قبيل المبالغة لو قلت أن كل محور يحتاج بمفرده لدراسة دكتوراه منفصلة. ومع كثرة مصادر الدراسة أو النماذج التي اخترتها للبحث ذهبت لجلسة مناقشة مع الأستاذة الدكتورة نهاد صليحة، وعرضت عليها الأمر، فاقترحت على حلا رأيته مناسبا وهو: أن أقوم بالتأسيس النظري لكل هذه الهوامش الاجتماعية، ثم أختار مبحثا واحدا عند التطبيق العملي، واخترت الهامش النسوي باعتباره أقرب الهوامش الاجتماعية إليّ، لأن القابض على الجمر ليس كراصده، وباعتبار الباحثة جزءا من هذا الهامش فقد قررت أن تركز في بحثها عليه.

حاولت الباحثة في دراستها أن تستقصي مصطلح التهميش لغة واصطلاحا، كما حاولت أن تبحث تجليات هذا الهامش في الروايات التي صدرت في عقد التسعينيات، وقد اخترت هذا العقد للدراسة لأنه كان بمثابة الانطلاقة الحقيقية للاهتمام بالتهميش والمهمشين في الأدب بصفة عامة، والاهتمام بكتابات النساء بصفة خاصة، فمصطلح كتابة الهامش والمهمشين طرح بشكل لافت في التسعينيات، ورغم شيوع المصطلح في عدد من المقالات والدراسات الأدبية المتخصصة إلا أنه لم يُطرح في دراسة معمقة سوى في دراسة الدكتور مجدي توفيق التي طرح فيها الهامش الاجتماعي، وعنون دراسته بـ "أدب المهمشين" وأطلق عليهم "المهمشون الجدد".

لم تكن كتابة المرأة بعيدة عن دائرة الاهتمام، فقد لاقت تلك الكتابة اهتماما كبيرا من قِبل النقاد، كما نالت أيضا جدلا واسعا في الأوساط الأدبية والنقدية، جدلا في تحديد وضبط مصطلح "الأدب النسوي" ما بين معارض بشدة للمصطلح وقابل، بل ومتحمس له. كل هذا الجدل أحدث زخما نقديا على التوازي.

إذن اختيار عقد التسعينيات كعينة للدراسة لم يكن من قبيل المصادفة أو الاستسهال، وإنما كان بوعي تام ، لكشف الظاهرة وتتبعها منذ أن بدأ الجدل حولها، وليس معنى هذا أن طرح مفهوم الكتابة النسوية وليد عقد التسعينيات فقط، بل هو أقدم من ذلك بكثير، لكن الاهتمام والجدل الذي ناله المصطلح يتوازى مع الاهتمام والجدل الذي ناله مصطلح" أدب المهمشين" أو " المهمشون في الأدب " أو "الواقعية القذرة" أو "واقعية القاع " كما طرحتها الباحثة عفاف عبد المعطي في دراسة مقارنة لها عن هؤلاء المهمشين. وقد لاحظت الباحثة أن ظاهرة التهميش لم تنل جهدا بحثيا في مجال النقد الأدبي، فقد اهتم دارسو علم الاجتماع باستقصاء هذه الظاهرة أكثر من دارسي النقد الأبي، فرغم أهمية البحث في التهميش كوسيلة للكشف عنه ومقاومته من أجل ألا نقع في ثنائية المتن والهامش إلا أن هذا المجال لم ينل اهتمام الباحثين كثيرا. كذلك البحث في كتابات النساء من ناحية النقد الأدبي وقع هو الآخر فريسة ثنائية رفض المصطلح بشكل غير منصف أو التحمس له بشكل غير دقيق تماما، فالرافض يرى أن الأدب يجب أن يكون أدبا في عمومه، وأن التصنيف بناء على الجنس إنما هو نوع من الإقصاء للنساء. كذلك كان المتحمس للمصطلح والتصنيف تحكمه أيديولوجية الصراع بين المذكر والمؤنث، وهذا أيضا لم يكن في صالح

البحث النقدي وحياديته. تأمل الباحثة أن تكون قد امتلكت الحياد حين البحث في الظاهرة، وحين تحليل الخطاب الثقافي لكتابات النساء، ليس لإنصاف المرأة الكاتبة على حساب الرجل الكاتب، بل لتفكيك مقولات التحيز ضد النساء، وكشف المسكوت عنه في الثقافة، فلن ينهض مجتمع يعطل نصف قواه البشرية بسبب وطأة مقولات ثقافية تحكم وعيه، وبسبب خطاب ذكوري ينال من نصفه الأضعف. ثمة حقيقة لا يقدر أحد على أن ينكرها وهي أن النساء يقعن تحت وطأة ثقافة ذكورية تتحيز ضدهن عبر مقولات كُرس لها طويلا مرة باسم العادات والتقاليد والعرف وأخرى باسم الدين، وعلى النساء أن يصمتن ويرضين بما يُقدّم لهن من قبل مجتمع الذكور دون تمرد أو احتجاج.

إذن موضوعة الهامش بكل تجلياتها وتمثلاتها في الواقع لم يتعامل معها النقد الأدبي كظاهرة اجتماعية يجب قراءتها في سياقاتها الاجتماعية، وخاصة أن الهوامش الاجتماعية متعددة كما تقدم، لذا حاولت الباحثة وضع هذه الهوامش تحت الاختبار النقدي، واستقصاء هذه الظاهرة وتمثلاتها في السرد ، بهدف وضعها في دائرة الضوء، وكشف المسكوت عنه فيها، ولفت نظر دارسي العلوم الإنسانية لهذه الهوامش بغرض أن يتم العناية بها من قبل المجتمع. وحين ركزت الباحثة بحثها على " المرأة ووضعيتها الهامشية " ليس بهدف تقصي ظاهرة الأدب والنقد النسويين، لأن كليهما قد بُحث كثيرا من قبل الدارسين، لكن ما يهم الباحثة هو الحفر عميقا في الثقافة الرسمية والشعبية التي تحدد رؤية المجتمع للمرأة، وكيف تتحيز ضدها الثقافة. وهذه التعرية للثقافة المتحيزة ضد النساء يمكن أن تخلخل القيم

السلبية القارة التي تُقصي النساء، وتفكك تلك المقولات، وتكرس لقيم إيجابية تُعلي من قيمة المرأة .

وقد كان العقد الأخير من القرن العشرين ، زمن الدراسة، قد اكتسبت فيه حركات تحرير المرأة و الأفكار المتعلقة بالنوع صياغات جديدة مع ظهور دراسات الاختلاف الجنسي التي لا تُعنى بالنضال التحرري من أجل المساواة، بل تهتم بإثارة التساؤلات حول الأطر السائدة عن المعيارية القائمة على النوع، من أجل إعادة صياغة موقع الذات.

وترى الباحثة أن بلورة الوعي في سبيل التغيير سيؤدي إلى استقطاب المزيد من الرجال إلى الحركة النسوية، مع العلم أن مهمة من هذا النوع ستكون ثورة فعلية، وستؤدي إلى إزالة أكثر المظالم عن المرأة، وإلى تحرير الرجال بدورهم من أدوار القمع والهيمنة التي يمارسونها بهدف بناء مجتمعات عادلة يعيش فيها الجميع أحراراً ومتساوين

كان اختيار المنهج السيسيوثقافي هو الأنسب بالنسبة للدراسة من وجهة نظر الباحثة، لأنه يمكنها ليس فقط من إعادة قراءة الصورة الروائية التي رسمتها الروائيات للمرأة عبر فضاءاتهن السردية، لكنه أيضا يمكنها من كشف الخطاب الثقافي الذي يمكن الكاتبات من كشف عوار الثقافة التي تعاني منها النساء، والتي تضعهن ـ رغم أنهن شريكات للرجال في المجتمع ـ في موضع الهامش وتضع الرجال في موضع المتن، مما يُوجِد تلك الثنائية، هامشا في مقابل متن.

إذن حددت الباحثة منذ العنوان الرئيسي للرسالة المنهج الذي سوف تتعامل به مع الظاهرة وهو المنهج السيسيوثقافي باعتبار أن موضوعة الهامش

ظاهرة ثقافية لها تمثلاتها في السرد الأدبي، لكن لأنها واعية بأن النص الأدبي له مستويان اثنان، مستوى واعٍ، مَقُول، يُصدِّره الكاتب، ويسعى لأن يصل إليه المتلقي بشكل مباشر، ومستوى آخر كامن في لاوعي الكاتب أو ثاو في فراغات النص الأدبي، وهنا يأتي دور القارئ المتأمل والواعي الذي يتمكن عبر وعيه بالخطاب الثقافي واللاوعي الجمعي والسياقات الاجتماعية أن يعيد قراءة النص عبر تسويد مساحات البياض التي يقدمها النص، حينها يتمكن القارئ من أن يملأ فراغات ذلك النص، لذا وجدت الباحثة أنها يجب أن تفيد من منهج تحليل الخطاب الذي يهدف إلى فك شفرة النص بالتعرف على ما وراءه من افتراضات أو ميول فكرية أو مفاهيم؛ فتحليل الخطاب عبارة عن محاولة للتعرف على الرسائل التي يود النص أن يرسلها، ويضعها في سياقها التاريخي والاجتماعي، وهو يضمر في داخله هدفا أو أكثر، وله مرجعية أو مرجعيات، وله مصادر يشتق منها مواقفه وتوجهاته. إن الخطاب أكبر من النص، وأشمل من الأيديولوجيا، ويؤثر في نوعية وكيفية استخدام اللغة. كذلك تفيد الباحثة من فكرة " رؤية العالم " التي طرحها جولدمان في حديثه عن البنيوية التوليدية، لأنها من خلال رؤية العالم يمكن أن نتعرف على لاوعي الكاتبة وما تريد أن تسربه للقارئ من خطابات. وعبر هذه الإفادة من مناهج ورؤى نقدية متجاورة يمكن للباحثة إن تُسهم في فضح الخلفيات والدلالات البطريركية للأمثال الشعبية وللقص الشعبي اللذين بنيت عليهما الخلفية الثقافية والاجتماعية للفرد، وتلك الذائقة الأدبية التي يولدانها والتي تتغلغل في لاوعي الأطفال الذين سيصبحون رجالاً ونساء في المستقبل. كذلك يمكنها أن تُسهم في تعرية الكثير من الآليات اللغوية والدلالات الذكورية المكرسة في اللغة، عبر الحفر والبحث

عن رؤية الكاتبات لذواتهن الأنثوية وعلاقة تلك الذوات بالمجتمع، الذي يتبنى ثقافة ذكورية تُقصي وتهمشس المرأة. وقد حاولت الباحثة أن تحفر عميقا في أثر الذات في التجربة، وتفاعل هذه الذات مع النتائج وتأثيرها فيها. وربما يُعد هذا الجهد البحثي امتدادا للنسوية الثقافية التي هي ـ بدورها ـ امتداد ورافد للفكر النسوي الفلسفي وموجه للحركة النسوية في مختلف المجالات : (علم الاجتماع، الاقتصاد، النقد الأدبي، تاريخ الفن، التحليل النفسي، الفلسفة) التي تهدف إلى تقديم نقد مجتمعي سياسي يركز على حقوق المرأة واهتمامها والتمييز الجنسي، وتشييء المرأة وخصوصا من الناحية الجنسية.

حين قررت الباحثة أن تكشف عن صورة المرأة التي يرسمها السرد كانت أمام خيارين: إما أن تكشف عن صورة المرأة التي يرسمها الكاتب / الرجل في كتاباته وإما أن تركز على صورة المرأة التي ترسمها الكاتبة / الأنثى لذاتها، وتصورها عن هذه الذات الأنثوية التي تكمن وراء مقول النص ولا مقوله، والتي هي تَمثُّل واضح لذات الكاتبة، وثمة خيار ثالث أن تنتقي الباحثة كل كتابة تتعامل مع المرأة من منطلق فكر نسوي ينصفها ولا يهمشها بغض النظر عن جنس الكاتب، فثمة كتابة يمكن أن تُصنَّف على أنها كتابة نسوية، تدعم فكرا يعامل المرأة كمواطنة كاملة الأهلية دون تمييز وإقصاء وربما يكون كاتب هذه النصوص رجلا، وثمة كتابة ترسم صورة للمرأة من وجهة نظر ذكورية حتى لو كانت كاتبتها امرأة وليس ببعيد عن الأذهان تجربة جورج طرابيشي في قراءته لنص من نصوص نوال السعداوي التي عرفت بتبنيها للأيديولوجية النسوية، ومن خلال التفكيك وإعادة القراءة خرج جورج طرابيشي بقناعة أن الخطاب في نص نوال

السعداوي إنما هو خطاب ذكوري، وأعطى لدراسته تلك عنوانا كاشفا وهو :" أنثى ضد الأنوثة" أيضا هناك تجربة مماثلة قامت بها الباحثة الأردنية زليخة أبو ريشة في قراءتها لنص أحلام مستغانمي الأشهر " ذاكرة الجسد " ومن خلال تحليل الخطاب اللغوي ومن ثمَّ الخطاب الثقافي خرجت زليخة أبو ريشة بنتيجة مفادها أن الخطاب الذي يكمن وراء رواية ذاكرة الجسد إنما هو خطاب ذكوري بامتياز.

إذن حيرة الباحثة مشروعة في اختيار توجه من التوجهات الثلاثة، إما أن تحلل صورة المرأة في كتابات الرجال وإما أن تحلل صورة المرأة في كتابات النساء، وإما أن تختار نماذج تتبنى الخطاب النسوي بغض النظر عن جنس كاتبه، وانحازت الباحثة للاختيار الثاني. اختارت أن تقوم بتحليل نصوص لكاتبات حتى يتسنى لها أن تحقق أمرين : الأول تكشف عن تصور المرأة عن الذوات النسوية التي تقدمها، وكشف أبعاد الصورة الروائية التي ترسمها عبر السرد، الثاني كشف رؤية المرأة للثقافة، وكشف مدى وعيها بتحيز الثقافة ضد النساء .

توزعت فصول الدراسة على ستة فصول، جاء الفصل الأول ليكشف تاريخ التهميش وعلاقته بنظريات علم الاجتماع ، وتضمن ثلاثة محاور : الأول هو آليات التهميش والاستبعاد ، وفيه تحدثت الباحثة عن وسائل وآليات المركز في استبعاد وإقصاء هوامشه، ثم تناول المحور الثاني استقصاء معنى التهميش والمهمش والهامش لغة واصطلاحا، ومتى أُطلِق المصطلح لأول مرة، ثم جاء المحور الثالث عن تاريخ الهامش كمصطلح أدبي.

ثم كشف الفصل الثاني عن الذهنية العربية التي تداوم على الإقصاء والتهميش ،وينقسم إلى أربعة محاور: المحور الأول هو عن المهمشين في

الثقافة والأدبيات، ليوضح لنا تجليات الهامش في الأدبيات، وكيف تعاملت الثقافة والأدب مع صورة المهمش بصفة عامة، وصورة المرأة المهمشة بصفة خاصة. في حين أن المحور الثاني عن الرواية التي اعتنت بالمهمشين ونشأتها منذ الرواية البيكارسية التي نشأت في أسبانيا، كما أن المحور الثالث أوضح تجليات الرواية البيكارسية في الثقافة العربية في روايات العيار والشطار، ثم أخيرا محور الجماعات الأدبية الغاضبة التي نشأت منذ نهاية الستينيات وحتى عقد التسعينيات.

بعد ذلك يأتي الفصل الثالث تحت عنوان :" هوامش المجتمع وتمثلاتها في السرد، ويحتوي على الهوامش الاجتماعية المختلفة مثل" الهامش الديني والهامش الجغرافي، والمكان وأهميته في الرواية ، ثم البيئات البينية على أطراف المدن (ساكنو القاع) وأخيرا الريف في الرواية.

بعد ذلك يأتي الفصل الرابع الذي نال عنوانا دالا وهو " المرأة من الهامش إلى المتن" مما يشي بتحرك مكانة المرأة من الهامش إلى المتن، وهذا الفصل يتكون من عدة محاور: أولها كتابة المرأة هل هي تجربة روحية أم اجتماعية ؟ ثم الخطاب النسوي خصائصه ورهاناته، ثم صورة المرأة في الموروث الشعبي.

بعدها يِأتي الفصل الخامس ليكشف عن حركة تحرير المرأة، تاريخها، وصراعها مع المجتمع الذكوري، ويأخذ مساحة خمسة محاور من الرسالة، يأتي المحور الأول ليوضح بدايات تحرير المرأة العربية، ثم يأتي بعده محور " المرأة ووعي اللغة " وهو محور مفصلي في الرسالة حيث يكشف عن فكرة الوعي باللغة، وكيف يمكن أن تحمل اللغة خطابا ذكوريا دون أن تدرك الكاتبة ذلك، وكيف يمكن تحميل اللغة بالخطاب النسوي، بعدها يأتي

محور ثالث هو " الكتابة النسوية نقدا وإبداعا " وفيه تكشف الباحثة عن جهود النساء سواء على المستوي النقدي والدفاع عن المصطلح أو المستوى الإبداعي. بعدها يأتي الحديث بشئ من التفصيل عن مصطلح النقد النسوي بين القبول والرفض ، وأخيرا موقف النقد العربي من المصطلح. ثم المحور السادس عن رؤية الناقدات النسويات للكتابة النسوية ،وأخيرا ملامح الكتابة النسوية التي رصدها النقاد.

ثم يأتي الفصل الأخيرليكشف عبرآليات تحليل الخطاب عن الخطاب الثقافي الثاوي في النماذج المختارة، ولم تكتف الباحثة بالقراءة الثقافية فقط، لأن النص الأدبي يجب أن يتحصل ويتوفر على جماليات وفنيات تفرق بينه وبين دراسات علم الاجتماع، وإلا ما الفرق بين كتاب في علم الاجتماع يتحدث عن المتن والهامش وبين نص أدبي تحاول من خلاله الكاتبة عبر كشف جماليات وتشكيل السرد أن تقرأ خطابا ثقافيا يكشف عن المتن والهامش؟!

وقد قامت الباحثة بعمل إحصاء ببلوجرافي لكتابات النساء التي صدرت في التسعينيات، ثم اختارت نماذج رأت أنها تتوفر على قدر من الجماليات التي تعطيها صفة الأدبية، كما تتوفر على خطاب ثقافي يخبر ويشي بمكانة المرأة في مجتمع ذكوري تحكمه ثقافة ذكورية إقصائية.

وقد يتساءل قارئ لماذا لم تقم الباحثة بتحليل كل النماذج الروائية التي صدرت في هذا العقد، والباحثة إذ تسعى للتكثيف النقدي، وتقديم خطاب يحتوي على جهد محكم من البحث الثقافي الجمالي تخيرت عددا من النماذج، لأن ما صدر في هذا العقد من روايات للنساء تضيق به عشرات الرسائل الجامعية لكثرته. وقد اختارت الباحثة روايات لعدد من الكاتبات

من أجيال مختلفة وهن : سلوى بكر في رواية "العربة الذهبية لا تصعد للسماء"، والراحلة نعمات البحيري في "أشجار قليلة عند المنحنى"، و ابتهال سالم في"نوافذ زرقاء" و نوال السعداوي في" نرجس وإبليس"،و سحر الموجي في "دارية "، وعفاف السيد في"سيقان رفيعة للكذب" و نورا أمين في "قميص وردي فارغ" و ميرال الطحاوي في " الخباء".

النتائج

لقد انتهت الدراسة إلى عدد من النتائج يمكن عرضها كالتالي :

١ ـ كانت الكتابة فضاء متسعا يمكنهن من خلخلة منظومة القيم السائدة التي تتحيز ضد النساء وتقصيها ، كما كانت الكتابة فرصة سانحة لتقويض النسق الثقافي البطريركي ، والانتصار للقيم المتريركية النسوية ، كما كانت وسيلة لتعرية وكشف الثقافة الذكورية ، ووضح ذلك في كل الروايات التي كانت قيد الدراسة .

٢ ـ اتضح من خلال النصوص التي تمت قراءتها أن الكتابة كانت وسيلة لإعلاء صوت النساء ، وفي كثير من النصوص إزاحة صوت الرجال .

٣ ـ إن المواجهة مع المركز/الرجل شكّل ملمحا مميزا في السرود النسوية ، وقد نهضت هذه المواجهة حد الصدام ، وتجلت تلك المواجهة في نمطين :

ـ الأولى مواجهة معلنة تشنها المرأة الكاتبة عبر ساردتها الأنثى ، وتشكل تلك المواجهة والمجابهة تيمة رئيسية للكتابة كرد فعل للمجتمع التي تشكلت أعرافه وقوانينه وفق مصالح المركز / الرجل ، كما في روايات : جنات في رواية نوال السعداوي ، حيث تشتبك مع الثقافة وتواجه ما يمكن أن

تمارسه تلك الثقافة على المرأة ، لكن الصدام مع الثقافة والمركز أدخل جنات مستشفى الأمراض العقلية . كذلك تجلت المواجهة في رواية " العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء " لكن المجابهة أيضا أوصلت ساردة سلوى بكر إلى سجن النساء .

كما أن المواجهة في رواية " أشجار قليلة عند المنحنى " انتهت المواجهة بفرار الساردة من سجن الغربة ، وسجن الثقافة الذكورية ، لتعود إلى مصر هاربة ومفلسفة ولا تمتلك أجرة التاكسي الذي يعود بها من المطار إلى منزلها .

ـ كذلك تنتهي المواجهة بساردة " دارية " بأن تحرم دارية من طفليها ، وتناضل من أجل الحصول على وثيقة تحررها وعتقها ، تناضل فقط من أجل الحصول على وثيقة طلاقها كي تتمكن أن تشعر بالتحرر بعد طول قهر وتهميش . ثمة مواجهة أخرى لكنها لم تكن مواجهة عنيفة مثل المواجهة السابقة ، المواجهة هذه المرأة على مستوى المعرفة ، وتنتصر المرأة / الكاتبة في هذه المواجهة للمرأة ، بل تعتبر المرأة أعلى من الرجل معرفيا وثقافيا ، وترفض أن تتماهى في صورته الذكورية وذلك تجلى في رواية " سيقان رفيعة للكذب لعفاف السيد حيث تتعالى الساردة على الجنس المذكر ، وترفض أن تتطابق معه صورته الفحولية ، لأنها ترى الذات الأثنوية أكثر سموا ورقيا من تلك الصورة الذكورية، تقول مخاطبة له :" لست ذكيا بالقدر الكافي ، ولذلك لن أتطابق معك ، فأنا أكثر ذكاء وثقافة ، هي المعرفة التي تأتي بالتراكم والخبرات وأنت سطحي جدا ، لم تقدر أن تقيم معي حوارا أبدا ، ولم تقدر أن تستوعبني وأنا أجذِّر لمعتقداتي الفكرية "(١٧٠).

٢ ـ الثانية ، لا تُعد مواجهة ، بل هو حوار ، ترغب إقامته مع المركز ، فهي لا تسعى إلى التصادم المباشر معه ، وهذا الحوار الهدف الأول منه محاورة الثقافة الذكورية التي تدين وضعية المرأة وتهمشها ، وتقصيها . تأتي محاو لة الحوار كنوع من التقويض الناعم للثقافة الذكورية تتجلى تلك المحاولة في رواية " قميص وردي فارغ " حيث حاولت الساردة أن تتخلص من الصورة النطية للمرأة ، صورة الأنثى المفعول بها ، وليست الفاعلة ، صورة الأنثى الموضوع وليست الأنثى الذات . ساردة نورا أمين ترفض أن تكون في وضع المفعول به ، لذا سعت إلى دور الفاعل ، مع موقع قهر الطرف الأضعف ، فقد كانت تسعى إلى أن تقوم بدور الرجل ، كما تسعى في اختيارها للرجال أن يكونوا ضعافا مثل أمها الضعيفة ، فهي تسعى إلى تبادل مواقع مع المركز ، ليصير المركز هامشا والهامش مركزا :" اصطفيت رجالا طيبين ، يشبهون أمي أحيانا ،ليكونوا محل ثقتي ، يتلقون دفاعي بدلا من الرجل الآخر ، أحبوني في بساطة فأديت معهم دور الرجل الذي أفر منه ، لم يتمردوا ولم يكتشفوا السبب وراء قوتي . كنت هكذا أنتقم لنفسي من الرجل الخطأ، كنت قد تحولت بلا إرادة إلى أن أكون الرجل الخطأ "(١٧١).

٤ـ إتاحة بعض الروايات النسوية الفرصة للسارد المذكر أن يحضر في النص ، ويكون له صوت يميزه ، غير صوت الذات الساردة الأنثى ، لكن حضوره غالبا يكون قليلا ، لا يتناسب وحجم الحضور الأنثوي في النص ، وتتيح الكاتبة الفرصة للصوت الذكوري كي يؤكد الخطاب الثقافي الذي ترغب الكاتبة أن تسربه إما عبر التقاطع معه ، بالتضاد أو عبر ما يشبه الاعتراف والبوح تأكيدا لذات الرؤية النسوية ، وقد تجلى ذلك في روايات

مثل : " أشجار قليلة عند المنحنى " و" سيقان رفيعة للكذب " و " قميص وردي فارغ " .

ـ كاتبات التيار الأول ، الذي يتبنى وضع المرأة في سياق اجتماعي، وكشف وتعرية كل هوامش المجتمع المختلفة يمتلك وعيا حادا بمدى القهر الذي يتعرض له الرجل كما تتعرض له المرأة ، وإن كانت المرأة تتعرض بدرجات مضاعفة نتيجة لواقع اجتماعي وتاريخي مركب يسعى لتنميط أفراده ، ومن هذه الروايات " العربة الذهبية لا تصعد للسماء " و " أشجار قليلة عند المنحنى " و " نوافذ زرقاء " و " جنات وإبليس " .

ـ النصوص التجريبية التي تجلت فيما سُمي بـ " كتابة البنات " تجعل من الكتابة وطنا بديلا يُعيد للمرأة الكاتبة وجودها وكينونتها ، وكأن كاتبات هذا التيار يكتبن فقط ليعدن ترتيب العالم أو ليتماسكن بعد شعورهن بتشظي الذات ، وتحضر المؤلفة كعلامة نصية في النص إما عبر أن تكون الساردة كاتبة أو شاعرة كما في رواية " دارية " أو عبر كسر الإيهام ، ومخاطبة القارئ الضمني الافتراضي والحديث عن أعمالهن الرواية أو القصصية السابقة مثل " سيقان رفيعة للكذب " و " قميص وردي فارغ " .

٥ـ ثمة وعي جديد لدى المرأة الكاتبة في تناولها لموضوع الجسد الذكوري ، فلم تعد الكاتبة تعني بإظهار الصورة النمطية المحافظة للمرأة ، ولمم تعد تسعى لأن تتمثل صورة المرأة الأنموذج الذي لا يجب أن تتجرأ وتكتب جسد الرجل الذي ظل قرونا يحول جسدها الأنثوي إلى علامة نصية في كتاباته ، بل تجرأت الكاتبات وتحدثن عن المسكوت عنه ، وقد كان جسد الرجل هو المسكوت عنه ، فلم يكن مقبولا قبلا أن تصف النساء مفردات

الرجل الجسدية . تطور وعي الكاتبات وتم التبئير على جسد الرجل عبر استحضار وصف جسده أو حتى رغبة الذات النسوية في هذا الجسد ، فرواية " قميص وردي فارغ " مثلا تقوم نورا أمين بالتبئير على جسد الرجل ، والتبئير على مفردات هذا الجسد والإفصاح عن رغبة الساردة فيه واشتائها له .

٦- إن من أهم السمات التي يمكن رصدها لمن يقرأ كتابات كتبتها نساء هو فكرة كتابة الذات ، الذات الأنثوية بخصوصيتها،فالخصوصية التي تطرحها المرأة عبر كتابتها والتي تنبثق من سياق حياتها المغاير لحياة الرجل، مما يجعل من فكرة الخصوصية حتمية تلاصق كتابات النساء، فاختلاف السياق الثقافي للرجل عن السياق الثقافي للمرأة هو ما يرشح فكرة خصوصية الكتابة النسوية. حتما إن الاختلاف ليس اختلافا بيولوجيا فقط ، بل هو اختلاف نفسي ، مما يؤدي إلى الاختلاف في رؤية العالم ، فلأنه :" ليس لنا نحن والرجل الماضي نفسه ، ولا الثقافة نفسها ، فكيف يكون لنا ، والحالة هذه التفكير نفسه والأسلوب نفسه ؟ ذلك أن المرأة تكتب بشكل متميز عن الرجل ، ولا سيما بعد أن تطورت العادات والتقاليد بفضل النضالات النسوية ، حيث لم يعد ينظر إلى هذه الخصوصية في أسلوب الكتابة على أنها تعبر عن دونية ومحدودية، بل جرى التعامل معها كحق من حقوق المرأة في التمايز "(١٧٢).

إذن خصوصية وضعية المرأة تفرض سمات مغايرة في الكتابة ، فتجارب الحياة والخبرات الخاصة بالنساء تجعل إحساسهن بذواتهن مختلفا ، ومن ثم فإن المرأة الكاتبة تعبر في كتابتها عن شواغلها الذاتية ، مما يصبغ كتابتها بحساسية خاصة . وقد تحدثت فيريجينا وولف عن خصوصية كتابات المرأة

ورأت أن المرأة تكتب من منطقة مظلمة ، حيث عالمها الحميم الخاص الذي تستمد منه مادتها ويلون سردها بالذاتية :" من المرجح أن قيم المرأة فيما يخص كلا من الحياة والفن تختلف عن قيم الرجل، فعندما تبادر المرأة بكتابة رواية فإنها ستجد نفسها تسعى دائما لتبديل القيم الثابتة لتجعل ما يبدو قليل الأهمية للرجل جادا ، وما يبدو له هاما تافها"(١٧٥).

ـ كما أشارت الباحثة قبلا أن خصوصية الكتابة النسوية سمة لا يمكن إنكارها ،فالمرأة تمتح من عالمها الخاص ، لتعبر عن ذاتها ، وعن ذوات نسائية تشبهها، وهذه الذاتية الإبداعية لا تقلل من قيمة إبداع النساء ، بل ربما تعطيه فرادة وتميزا يوجبان الاعتراف بخصوصية مصطلح الأدب النسوي بالتالي، تجلت الذاتية في الكتابات الحداثية ، فنراها في روايات : " دارية " و " قميص وردي فارغ " و " الخباء " و " سيقان رفيعة للكذب.

٧ ـ سمة أخرى تتميز بها الكتابة النسوية هي كتابة التفاصيل ، العين اللاقطة القادرة على الإلمام بأدق التفاصيل ، وقد برر بعض النقاد ذلك بأن طبيعة المرأة تهتم بأدق التفاصيل ، لتصوير خصوصية العالم النسوي . حياة النساء مليئة بحشد من التفاصيل الحياتية والخبرات الإنسانية العالية التي لها فرادة مقارنة بعالم الرجال . تفاصيل حياة النساء هي ملمح فريد يبصغ السرود النسوية وخاصة حين تلامس الكاتبة مكامن الجسدية باشتغال تقنية التبئير التي تتيح لها رصد التفاصيل الفيزيقية للجسد المرئي.

وهذه السمة شملت التيارين الرئيسيين في الكتابة النسوية ، التيار الأول الذي وصف بأنه يعني برصد وضعية المرأة كهامش اجتماعي وفق سياق التهميش لكل الشرائح المهمشة ، والتي اتسمت بها كاتبات مثل : سلوى بكر

ونعمات البحيري وابتهال سالم ، والتيار الثاني الذي سمي بـ " كتابة البنات " أو تيار الكتابة الحداثية الذي يتضمن كاتبات مثل : عفاف السيد ونورا أمين وميرال الطحاوي وسحر الموجي .

٨ ـ عمدت الكاتبات إلى كتابة الجسد المؤنث والمذكر بهدف تقويض بنية المسكوت عنه وتحرير المخبوء في لاوعي الأنثى ، وقد قوضت الكاتبات الفكرة الذكورية عن كتابة الجسد ، حيث يحصر الفكر الذكوري كتابة الجسد في الأيروتيكية ، لكن الكاتبات قدمن مفهوما واعيا لكتابة الجسد ، حيث طرح من منظور المعاناة النفسية باعتبار الجسد الوجه الآخر للذات ، ووضح ذلك في روايات " العربة الذهبية لا تصعد للسماء " " نوافذ زرقاء " " الخباء " " قميص وردي فارغ " " دارية " .

٩ ـ تناصت السرود النسوية مع السياق الثقافي العام ، بانفتاحها على خطابات ثقافية مجاورة للسرد ، مثل المثل الشعبي في" العربة الذهبية لا تصعد للسماء " و " نوافذ زرقاء " و " جنات وإبليس " و " الخباء " كما تناصت مع الشعر مثل رواية " دارية " و " أشجار قليلة عند المنحنى " كذلك تناصت مع السينما والفن التشكيلي مثل روايات " سيقان رفيعة للكذب "و " دارية " و " قميص وردي فارغ.

١٠ ـ أفادت بعض الروايات محل الدراسة من تقنية الميتا سرد والسيرذاتية مثل روايات " دارية " و" قميص وردي فارغ " و " سيقان رفيعة للكذب " .

توصيات

إن السؤال عن كيف تختلف المرأة عما يعتقده فيها الرجل سؤال مهم ، لكن الأهم أن أن تتعرف على الكيفية التي أصبحت عليها الآن عبر التاريخ الذي هو تاريخ الاضطهاد ضدها، ولا يمكن وضع نهاية لهذا الاضطهاد إلا من خلال تحليل علاقات القوى بين الرجال والنساء ، وتحليل الممارسات بينهما ، وعندئذ سنكتشف كينونة المرأة ، أو الكينونة الني يمكن أن تكون عليها ، والأكثر أهمية استراتيجيا هو معرفة ما إذا كانت الطبيعة المشتركة الأنثوية كما تقول بها النسوية الفرنسية يمكن أن تساعد في إنجاز عدة أهداف مختلفة منها : إمكانية العمل على الهامش ، أو اكتشاف طرق جديدة للعمل من المركز ، و رفض كل الممارسات النسوية التي فرضها المجتمع البطريركي على النساء .

١ ـ أمكن لنا من خلال إعادة قراءة المنظومة الثقافية القائمة أن نبين مدى انحياز هذه المنظومة إلى الذكر ، كما نبين أيضا الكيفية التي يمكن من خلالها أن يظهر وعي المرأة بذاتها بوصفها جزءا أصيلا في الثقافة و لا يمكن أن تكتمل هذه الثقافة إلا بالاهتمام بالمرأة على القدر نفسه الذي تهتم به بالرجل.

٢ ـ يمكن كذلك من خلال قراءة وتفكيك القيم الثقافية الذكورية أن نصحح المفاهيم الخاطئة حول هوية المرأة النفسية ، مع إعادة قراءة التاريخ الذكوري بحثا عن وضعية المرأة ، وأن نفحص اللغة بوصفها الأداة الأكثر فاعلية في تكريس الوضعية المتدنية للمرأة .

٣ ـ كذلك تدعو الباحثة كل المهتمين بوضعية المرأة ، والراغبين في أن تكون جزءا من المركز ، وشريكا وندا للمجتمع الذكوري أن يمحصوا الأفكار التي قامت عليها الثقافة العربية ، محاولين إنتاج ثقافة جديدة تعطي المرأة المكانة التي تستحقها .

٤ ـ تتمنى الباحثة أن يتم إمعان النظر في هذا العنف الثقافي الموجه ضد النساء ، يجب أن نكشف هذه المنطقة حتى نعري أنماط الحضور اللا إنساني القامع في ثقافتنا الشعبية ، وفي أساطيرنا الاجتماعية.

٥ ـ تتمنى الباحثة أن يهتم النقد النسوي بالتنقيب في حقل الأسلوب ، ويركز على اللغة التي تستخدمها الكاتبة المرأة ويتم الكشف عن الاستخدام الذي يخفي داخله بنية قهر المرأة ، فإن أولى خطوات التحرر تبدأ من اللغة التي يجب أن تكون حرة تماما .

٦ ـ يجب وضع نهاية لمآسي المرأة في في مجتمعنا العربي بوضع قوانين تنظم حقوق النساء تكون هذه القوانين مستوحاة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومن اتفاقية «منع التمييز ضد المرأة»، حتى يمكننا أن نحل مشكلة دونية المرأة وتهميشها وإقصائها في مجتمعاتنا .

٧ ـ يجب الاشتغال على الثقافة بتقويض القيم المناهضة للمرأة ، ولن يتم ذلك إلا من خلال التعليم أولا بمراجعة القيم الذكورية السائدة فيه ، ثم الاشتغال على البنى الثقافة الذكورية من خلال تقويضها وتقديم البديل النسوي لها ، وتوصي الباحثة أن تقوم مؤسسة من مؤسسات الدولة بتبني إصدار سلسلة فكرية ثقافية تشتغل بهذه الاستراتيجية ، استراتيجية التقويض والتفكيك ومن ثم البناء ، ويجب اعتبار هذا الأمر مشروعا قوميا لتخليص

مجتمعاتنا من الثقافة الذكورية التي تضطهد النساء .

٨ ـ إن الإقصاء والتهميش اللذين تعاني منهما المرأة يحضر بامتداداته الاقتصادية والاجتماعية وبأبعاده التاريخية والمستقبلية، ولن يتم تحريك وضعيتها من الهامش إلى المتن إلا بنظام تربوي يتبنى فكرة المواطنة الكاملة للمرأة ، ويجتث من مناهج التعليم كل ما يعتبر تمييز ضد المرأة ، ويقلل منها .

٩ ـ إن تدني الوعي الحقوقي في المجتمع يسهم زيادة واتساع قاعدة الفئات المهمشة في المجتمع ، لذا لن تستطيع هذه الهوامش أن تتحرك بوضعيتها من الهامش إلى المركز إلا بتنمية الوعي الحقوقي ، وأهمية أن تطالب تلك الفئات المهمشة بحقوقها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

١٠ ـ تدريس حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية والسياسية في المدارس والمعاهد والجامعات مما يجعل الوعي بها واحترامها حاضرا في وجدان وممارسة المجتمع ، مما يقلل من قاعدة الهوامش الاجتماعية .

١١ ـ دعم الحقوق السياسية للمرأة ، ودعم حقها في الانتخاب والترشيح ، وحق تحمل المسؤولية الجماعية والبرلمانية وحق الانتماء الى الأحزاب والنقابات والجمعيات وحق إنشائها وتحمل المسؤولية فيها دون توجيه من أحد ، أو وصاية عليها.